الحلقة الثامنة

سارتر

books4all.net / ok.kandl.com

■ أما ثالث الثلاثة[*] من أدباء ومفكري أوروبا الغربية الذين خرجوا من وسط دمار وخرائب الحربين العالميتين.. فهو الكاتب الفرنسي المبدع، والروائي المسرحي الفنان، والفيلسوف الإنسان.. المختلف حول فلسفته في الوجود والعدم: جان بول سارتر.. أحد ألمع الأسماء وأكثرها بريقاً في سماء الفكر والأدب والثقافة الفرنسية.. ليس على مستوى فرنسا أو أوروبا وحدهما، ولكن على مستوى العالم بأسره، فقد ولد في مطلع القرن العشرين.. في السنة الخامسة منه على وجه التحديد، وتخصص في الفلسفة في عام ١٩٣٠م.. ودرَّسها ليس في موطنه فرنسا بل في ألمانيا واليابان أيضاً حتى عام ١٩٤١م ثم استقال من تدريسها بعد عام وتفرغ لمجلته «الأزمنة الحديثة»، وللكتابة التي أخذت عليه مجامع قلبه وعقله قبل أن يبلغ العاشرة من العمر.. منذ أن سمع (جده) الذي عاش في كنفه يتيم الأب بين أمه وجدته.. يقول: «إن الشيء المكتوب أكثر واقعية وأهم من الشيء الذي نعيشه ونحياه».. ومنذ أن شعر بضرورة أن يبرر وجوده - كما كانت تلح عليه أمه - حتى لا يكون زائداً عن الحاجة!!

(*) تحدثت في الحلقة الماضية عن الكاتبين: الإيطالي.. ألبرتو مورافيا، والبريطاني كولن ولسن.

obeikandi.com

وأنه لابد وأن يكون ضرورياً كصديق جده «المسيو سيمونو».. الذي قال جده عن غيابه في إحدى الحفلات: «ينقصنا شخص هنا. إنه سيمونو»!.. أو كجدته التي قال عنها بعد أن أصبح «سارتر» ذلك الكاتب الذي يتخاطف الناس كلماته ومقالاته وإبداعاته أياً كانت: رواية أو مسرحية أو دراسة: «كان تكبُّرها يمنعها من السعي للحصول على المكان الأول، وكان زهوها.. لا يدعها ترضى بالمكان الثاني»..!!

لكن هذا الطفل القصير واليتيم والحزين الذي لم يكن يلاعبه أنداده والذي أدرك فيما بعد بأن حزنه كان يؤسس أهميته.. استطاع أن يبرر وجوده وسط عائلة جده البرجوازية والمتكبرة.. كما قال: «كان جدي يعولني.. وكنت أصنع سعادته» وإلى الحد الذي كانت تصيح معه العائلة معترضة على وِله «الجد بحفيده، وإمعانُ الحفيد في تَدَلله.. قائلة: «لقد أصابه بالجنون.. هذا الشقي»..

وسط هذه العائلة السعيدة والشديدة الإخلاص والولاء لعائلها الجد «شارل».. وبين ملحمة الحب التي عاشها «سارتر» مع جده، والحزن الذي كان يلف قلبه الصغير لفقد أبيه وهو في الثانية من عمره.. تعلم «الخربشة» على الورق أو الكتابة وهو بين السابعة والثامنة، ليصفها بعد أن بلغ التاسعة والخمسين أجمل وصف: «إن الكتابة هي إضافة لؤلؤة لعِقد عرائس الشعر.. هي ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة.. هي الدفاع عن الشعب.. ضد نفسه، وضد أعدائه»، لكن «جده» المولع بالمفكرين والكتابة

والكتّاب وصاحب معهد تدريس الفرنسية لغير أبنائها.. لم تُعجبه أولى محاولات (حفيده) القصصية «بائع الموز» التي كتبها.. قبل أن يتم العاشرة من عمره.

* * *

بعد أن أنهى «سارتر» دراسته الثانوية والجامعية بحصوله على ليسانس الفلسفة.. وغادر تلك الحياة الناعمة الرتيبة المستقرة مع جده وجدته ووالدته في مدينة «مودن».. إلى وظيفة مدرس للفلسفة في مدينة «هافر» بعزلتها ووحدته ودخله المحدود.. بدأ رحلة التعرف على ما حوله من مدن وأقاليم فرنسا، فكان «يركب الدرجة الثانية.. لأنه لا توجد على القطارات السريعة الخارجة من باريس درجة ثالثة»!!.. إلا «أن اشمئزازه من الأغنياء في أبهتهم لم يضعف»!!، وإيمانه بصعود نجمه الذي تنبأت به جدته وإلى الحد الذي قالت معه بأنه «سيكون هناك - في المستقبل - أموات كبار من أمثال نابليون وتمستوكليس وفيليب أوغسطس وجان بول سارتر».. لم يذبل، فكان يكتب.. ويكتب طوال ساعات فراغه وراحته وكأنه الكاتب الفرنسي الأشهر «شاتوبريان» الذي كان يقول عن نفسه «إني أعلم جيداً بأنني لست إلا آلة لعمل الكتب»..!!

وهكذا صدر له في أيامه الأولى كتاب: «عدن العربية» مصوراً مثاليته.. فـ «أسطورة الحقيقة» أو «خرافة الحقيقة» الذي صور فيه شكه.. لكن كتابه الأول والأجمل والأمتع والذي رد به وقد بلغ الثلاثين من عمره على أولئك الذين كانوا يقولون عنه فيما بينهم «إن هذا الرجل يتباطأ! إنه يتعلم منذ خمس وعشرين سنة دون أن

يفعل شيئاً! هل سنموت دون أن نقرأه».. فكان يجيب عليهم «اتركوا لي وقتاً للعمل!».. فكان العمل.. هو هذا الكتاب.. هو هذه الرواية التي تخاطفها آلاف الآلاف من القراء في الغرب وفي الشرق بحد سواء حتى غدت رمزاً ومعلماً من معالم ثقافة القرن العشرين وآدابه في حياة كل مثقف وأديب. إنها.. رواية: «الغثيان»، التي قدم فيها فكره وفلسفته.. من خلال قصة بطلها «روكنتان» - الذي لم يكن غير سارتر نفسه - الذي ذهب لإحدى المناطق الفرنسية لكتابة قصة حياة نبيل من نبلائها.. ولكنه بدلاً من ذلك كتب قصة حياته واشمئزازه. قصة غثيانه.. من نفسه ومن كل ما حوله ومن حوله!!

ثم أتبع تلك الرواية الرائعة.. بـ «ثلاثيته» الخالدة - دروب الحرية - التي أخذ جزءها الأول عنوان «سن الرشد»، وجزءها الثاني.. عنوان: «وقف التنفيذ»، وجزءها الثالث.. عنوان: «الحزن العميق»، فكانت أدباً في أرقى مستوياته.. وكانت فلسفة في أعلى تجلياتها.. وكانت قبل وبعد ذلك تاريخاً وسيرة ذاتية لكاتبها.. وزمانه ومجايليه..

* * *

عندما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تطل في أفق الثلاثينات من القرن الماضي.. كان سارتر الذي عاش الحرب العالمية الأولى طفلاً مندهشاً من أحداثها في بداياتها.. وسعيداً في ختامها بعودة الإلزاس واللورين إلى حماهما (الفرنسي)، وتعيساً في ذات اللحظة: لأن ذلك إنما يعني إغلاق جده لـ «معهده» الذي كان يعلم فيه الفرنسية لغير الناطقين بها.. وهم الألمان الذين استولوا عليها

obeikandi.com

في المقام الأول. كان سارتر الأديب والفيلسوف الذي تعلق أول ما تعلق بـ «هُوسِرل» وفلسفته «الظاهراتية» الألمانية قبل أن يلقاه في برلين ويتعلق بـ «كير كجارد» و«هيدجر» ونظريتيهما «الوجودية» التي تعتمد على «الإدراك» و«الحرية» و«الاختيار» كأساس لها.. يعتقد بأن الحرب «عندما تجري ستكون حرباً عصرية.. بلا مجازر، كما هو الرسم العصري.. من غير موضوع، والموسيقى.. من غير نغم، والفيزياء.. من غير مادة» (!!) كما قالت رفيقة فكره الكاتبة الفرنسية.. ذائعة الصيت: سيمون دي بوفار.. في كتابها «أنا وسارتر.. والحياة»!!

ولكن عندما تم تجنيده وهو في الرابعة والثلاثين.. في جيش الجمهورية الفرنسية الثالثة للدفاع عنها وعن الوطن، وتم أسرُه من قبل الألمان لتسعة أشهر.. وعاش نيران تلك الحرب.. علم بأنها لم تكن «عصرية» بالصورة التي تخيلها، وأنها أتون من النار له بداية وليست له نهاية، أتون.. أحرق أخضر الحياة ويابسها، والتهم الملايين من البشر والشجر.. ومزق كل جميلٍ عرفه.. وحرمه حتى من الكتاب الذي يمثل جوهر متعته وحياته. فإذا كانت باريس وروما.. قد نجيتا من ذلك الأتون لاستسلام الأولى وتحصن الثانية واتفاق (الحلفاء) على عدم المساس بالمدينتين اللتين تمثلان جوهر الحضارة بما تكتنزانه من نفائسها التراثية والمعمارية.. فقد تحولت بقية مدن أوروبا إلى خرائب وأطلال ينعق فيها البوم.. وتَصْفُر فيها رياح الوحشة والعدم. في تلك اللحظة، أخذ سارتر قراره بداية بالتوجه إلى العمل السياسي.. بالانضمام

إلى «المقاومة» التي أطلق شرارتها من لندن الزعيم الفرنسي «شارل ديجول» ثم بتأسيس حزب «الأحرار الاشتراكيين» الذي دعا من بين ما دعا.. إلى دعم الثورتين الجزائرية والكوبية، وانتهاءاً بالتوجه إلى العمل الفلسفي.. بجمع أفكاره الفلسفية في مواجهة طغيان الحروب وتجارها.. فكان كتابه أو نظريته: «الوجود والعدم»، وكانت مسرحياته «الجحيم» و«الذباب» و«الأيدي القذرة»، التي ألهمت فيما بعد الأستاذ توفيق الحكيم.. بكتابة مسرحيته الرائعة: «الأيدي الناعمة»..؟!

كان طبيعياً.. أن ينال «سارتر» بعد كل ذلك جائزة نوبل للآداب، ولكنها تخطته في عام ١٩٥٧م إلى زميله الأديب والفنان «ألبير كامو»، عن رائعته الروائية (الغريب).. ليرفضها عندما جاءته عام ١٩٦٤.. كما رفضها البابا من قبل، وبوريس باسترناك الروسي من بعد.. عن روايته (دكتور زيفاجو)؟!

* * *

لكن.. وقبل أن تطرح معركة الجائزة نفسها عليه كان في مطلع عام ١٩٦٣م يجلس في شقته الفاخرة بالطابق العاشر من منزله الجديد.. وقد دان له المجد من أطرافه وهو يرى «باريس وتلال سان كلو الزرقاء» ليصحح الجزء الأول من كتابه الأخير والجميل «الكلمات».. وهو يسأل نفسه: «عندما كنت طفلاً.. هل كنت أريد أن أستحق هذا المركز العالي؟ لابد أن في حبي لأبراج الحمام أثراً للطموح والزهو.. وتعويضاً لقامتي القصيرة»..!!

فإذا أعطيت نفسي حق الإجابة على تساؤله. فإنني أقول: نعم تستحق.. لكل ما فعلته وقدمته، وبكل ما انتهيت إليه في كتابك هذا الجميل: «الكلمات».. عندما قلت فيه «بأن من المهم جداً أن أستأنف الجري، فأقفز على قدميَّ وأنساب زاحفاً».. وعندما قلت: بـ «أن الموت كلما اقترب مني كان يزيدني نوراً بضوئه المعتم».. ولأن رؤيتك لنفسك انتهت عند قولك عن حياتك وجماع أيامك: «فماذا يتبقى؟ إنسان بكله.. مصنوع من كل الناس، يساويهم جميعاً، وأي واحد فيهم يساويه»، فهذا المعنى الرائع والكبير عن نفسك ومن حولك لا يساويه!! إلا قولك عن كتبك وأعمالك «إن خير كتبي هو الذي أقوم بكتابته الآن.. ويأتي بعده تواً آخر كتاب نُشر لي، ولكنني أعُد نفسي سراً لكي أشمئز منه»..!!

فهذان المعنيان.. يعطيانك ذلك المجد الذي نلته وعشته في حياتك.. وسيبقى بعد مماتك.

Obeikandl.com